

المطلق، فيما الإخوة الكبار وحتى الصغار يعتبرون أنفسهم مسؤولين على التصرف المثالي والذي يعتبر العمود الفقري للتمثيلات الخاصة بالذات والمجتمع. والنساء هن اللواتي يوصلن هذا المثال رغم أنهن يحاولن التحايل عليه، لكن هذا التحايل لا يتعلق بالعنصرية التي تعتبر موضوع صرامة⁽⁵⁾.

ونلاحظ كذلك في السينغال تضاربا بين تهمين العنصرية وتضاؤل هذا التهمين بحيث أنه "تتمن العنصرية قبل الزواج، وتوجد بعض الممارسات مثل الختان التي تعبر عن مراقبة اجتماعية فيما يخص جنسانية الفتيات (...)" غير أن هناك تحولات في بعض المجموعات حيث مطلب العنصرية لم يصبح محل إجماع (...). فعند الولولوف كانت العنصرية مطلوبة سابقا، ورغم تراجع هذا المطلب فالجنسانية مازالت مراقبة (...). ويبدو أنها تتوجه من جنسانية إجتماعية مراقبة من طرف المجموعة إلى جنسانية فردية⁽⁶⁾. وعند حديثه عن العنصرية في كتابه "المخيال العربي الإسلامي"⁽⁷⁾ يعتبر مالك شبال هذه الظاهرة من الأساطير الجنسانية الأكثر تشدد لأن الفتاة تحاول بكل الوسائل المحافظة على سلامة غشاء العنصرية للاستفادة من طقس من الطقوس المعبرة عن دخولها العالم الجنساني الذي بدوره يفتح لها أبواب الزواج. طابو العنصرية إذا بدوره يضم "طابو المحارم"، فالفتاة تحافظ على عنبريتها حتى مع محارمها من أب وأخ، ولا يخرق إلا إذا كان تصرفا شادا، وعلى أية حال فهي مقياس للتربية الحسنة ولتخلق الفتاة والأسرة. فهو يعتبرها رمزا للعبة الخلقية والفيزيقية للعروس. وهذه الظاهرة ليست مرتبطة بالمجتمعات العربية والإسلامية فقط بل مرتبطة بكل ما يحيط بالبحر الأبيض المتوسط.

يتساءل مالك شبال عن علاقة وصول المرأة إلى سن الزواج عنراء وإمكانية إعتبارها عفيفة، ويجب على أنه في العادة هناك تطابق العنصرية الفيزيقية قبل النكاح وسلوك الفتاة الخلقي. فهو يرى أن الشرف والعرض، في التصور الشعبي، مرتبط بالبرهنة على سلامة الغشاء الفيزيقية، أما بعد النكاح فالقاعدة هي الإخلاص المطلق الذي هو مطلب لإستمرار بقاء العلاقة الزوجية.

العنصرية ظاهرة اجتماعية معروفة منذ القدم، وإن كانت دراستها كظاهرة اجتماعية حديثة العهد، وهي ظاهرة ارتبطت بالمعتقدات والعادات الاجتماعية المحلية. لكن الباحثة زينب آسيا زربوح ترى أن "فكرة الإشهار بفرض البكارة وربطها بالعنصرية تعود لثقافة غربية استطاعت أن تختفي في لباس الدين والعادات والتقاليد"⁽¹⁾.

غير أنني أرى العكس تماما، لأن ظاهرة العنصرية تظهر وترتبط بثقافة الشرف الذي بدوره له علاقة وثيقة بمعتقدات وعادات محلية محضة، وبالأخص ظاهرة الإشهار بفرض غشاء البكارة التي تعرفها المجتمعات المغاربية بالخصوص والمجتمعات المتوسطية على العموم.

- مقاربات لطابو العنصرية

تعتبر العنصرية عند بعض الباحثين طابوها ومحظورا، من بينهم مالك شبال وزين الدين زمرور ونوال السعداوي، هؤلاء الباحثون الذين يعتبرونها ظاهرة ترتبط بالشرف والقداسة.

ونلاحظ تضاربا حول ضرورة الحفاظ على العنصرية وعدم المبالاة لفقدانها، خاصة في مجتمعات إفريقية. فدراسة جماعات "المازا" التشادية مثلا تؤكد أن "العنصرية غير مفروضة وغير مثمرة، ولكن هذا لا يمنع الأب من أن يراقب ابنته خوفا من حملها من شخص لا يعرفه ومن قطع العلاقة مع الخطيب الرسمي، فيصبح محطة سخرية"⁽²⁾.

وتوجد في المجتمع الغابوني مجموعة تدعى "ياقوتة" لا تحضى فيها "العنصرية بقيمة خاصة لأن الحياة الجنسية تبدأ في سن مبكر"⁽³⁾ وهنا مؤشر من المؤشرات التي توضح مكانة بالعنصرية والتمثل الخاص بها. ونلاحظ اهتماما أكبر بالعنصرية وهوسا شديدا متعلقا بها عند مجموعات تدعى "المافا"، حيث أن "إمرأة المافا التي تفقد عنبريتها قبل الزواج مهددة بالإعدام برفقة من ارتكبت معه هذا الإثم"⁽⁴⁾. إن فقدان العنصرية هنا يؤدي إذن إلى عقوبة تساوي عقوبة من ارتكبت جريمة القتل.

ترتبط هكذا سلامة المرأة الجنسية بالشرف وهذا ما يؤكد الباحث ج هوزي (Gérard Heuze) "فشرف النساء هو سلامتهن الجنسية وعفتهم قبل الزواج وإخلاصهن

تؤكد بدورنا مقارنة الباحث التي تعتبر أنه من البديهي دخول مسألة العنصرية في إطار فكر تسيطر عليه العادة ولا علاقة له بالتمدرس، لأن المسألة هنا ليست مشكل ثقافة أو تنشئة مدرسية بل هي مسألة مرتبطة بعادة غير فطرية بل مكتسبة من طرف المرأة، وذلك من خلال ما تتلقاه الفتاة منذ الطفولة من تنشئة جسدية وجنسية وإجتماعية خاصة.

وهنا ما تؤكد بعض البحوث الميدانية السابقة كذلك التي أنجزتها الباحثة راضية طوالي التي تركز على "مدى وزن مسألة العنصرية في تمثيلات الفتايات مهما كان مستواهن الاجتماعي والثقافي والاقتصادي"⁽¹⁰⁾.

وإنه لمن المفارقة أن يطرح الباحث زين الدين زمرور مسألة إعتبرها إشكالا يستدعي النقاش عندما يعتبر أن الفتاة توظف مسألة الشرف لصالحها للحصول على المزيد من الحرية، بينما أرى العكس في ذلك لأن الشرف هو من العوائق الكبرى التي تعترض حرية الفتاة وبالأخص في المجتمع المدرس من طرفه.

ويرتكز هذا الرأي الشخصي على تحقيقات ميدانية نعالجها لاحقا، وكذلك عبر بعض القراءات ومن بينها ما جاء في مقال للباحثة راضية طوالي حين تطرقت إلى "الأسمال الرمزي الذي يرتكز على الشرف بعلاقته مع طابو العنصرية، ونتيجته أنه يضيق هامش الحرية للفتاة وبالأخص فيما يتعلق بمسارها واستقلالها الذاتي"⁽¹¹⁾. فارتباط الفتاة بالعائلة وبشرفها وسمعتها، يجعلها مقيدة نفسيا ومعنويا مما يؤثر على استقلالها الجسدي والذاتي.

لكن هل هناك يا ترى متابعة سابقة لأخلاق وسيرة الفتاة قبل الزواج ؟ بمعنى آخر، هل هناك عنصرية معنوية أخلاقية تحمي الفتاة في حالة فقدانها لغشاء بكارتها إثر ظروف معينة طارئة ؟ هل العروس التي لم تحصل على قطرات من الدم في ليلة دخلتها هي في الواقع غير عذراء ؟

أرى أن الباحثة نوال السعداوي من أبرز من وقف على الواقع الحقيقي للمرأة، في هذا الحقل، وعلى مشكلة ربط العلاقة الجنسية بالإثم والخطيئة⁽¹²⁾، واعتبار كل ما يرتبط بجنسانية المرأة طابوها. والأمر الذي جعلها تقترب من هذه الحقيقة هو ربما أنوثتها، إضافة إلى أنها طبيبة نساء حيث سهل لها ذلك الإقتراب من مشاكلهن

ويضيف نفس الباحث في كتاب آخر (*L'esprit de sérail*, 1988) "إن ما يربط الرجل بالعنصرية هو تارة الرغبة وتارة الخوف (...) والعنصرية فرضت نفسها في التمثلات الجماعية كمقولة قائمة بذاتها"⁽⁸⁾.

إن المقاربة الأنثروبولوجية التي قام بها مالك شبال في كتابه *المخيال العربي الإسلامي* تقرينا من حقيقة طابو العنصرية، لأن فقدانها يعتبر من الممنوعات كما أنه يلطخ شرف وعرض عائلة الفتاة الفاقدة لعنبريتها قبل الزواج. فمالك شبال هنا يتحدث عن السلامة الفيزيائية للغشاء والإخلاص المطلق للزوج بعد النكاح وتدعيمه في الحفاظ على شرف العائلة.

ويمكننا، في هذه الحالة أن نقارن هذه المقاربة بمقاربة أخرى تخص المجتمع الجزائري والمحيط المتوسطي، هذه المقاربة التي تمثل دراسة حديثة أجراها للباحث زين الدين زمرور حول "الفتاة، العائلة والعنصرية"⁽⁹⁾. فزين الدين زمرور يحاول إبراز التناقضات الداخلية والخارجية التي يبنى عليها نظام القيم من خلال دراسة العنصرية، و يعتبر كمالك شبال أن العنصرية طابو خاص بالفضاء الجغرافي المتوسطي، وهي حالة فيزيقية تجر معها كلا مجتمعا أكثر تعقيدا، حيث يرى أنه من الواجب فهم الإيديولوجيات المتعلقة بالأسرة وإستراتيجيات فاعليها لفهم هذه الظاهرة. و يصل إلى نتيجة مفادها أن المرأة الحاملة للعنصرية تحمل رجولة الأبناء الذكور وعنصرية النساء الأخريات في الأسرة. فهو يؤكد بهذا على تقديس العنصرية باعتبار أن الطابو والمقدس لا يمكن مناقشتها.

و يقر هنا زين الدين زمرور أن الفتاة تحتل فضاء ضيقا في إيديولوجية ومشاريع العائلة، وهي بهذا حلقة في سلسلة كبيرة من نظام معقد للقيم حيث أن قانون الشرف هو النقطة المحورية. فالفتاة تفقد فردانيتها لحساب المجموعة العائلية، وبالتالي العنصرية تتحدد من هنا كواقع عائلي ومجتمعي.

وبهذا فإن الباحث ممن يعتبر أن ظاهرة العنصرية مرتبطة بالبحر الأبيض المتوسط، كما أنها حالة فيزيقية للغشاء ترتبط بواقع وإيديولوجية العائلة. وتظهر جليا سلطة الأبناء الذكور والعائلات على النساء في المحيط الإجتماعي على أنها مسألة مركزية.

المراجع:

1. زينب آسيا زويوح، عنصرية المرأة في المجتمع الجزائري، منكرة ماجستير، علم النفس وعلوم التربية، جامعة وهران، 2006، ص 5 و 6.
2. Françoise Dumas-Champion, « "Les hommes meurent toujours à cause des femmes" : les relations entre les sexes chez les Masa du Tchad », in N. Echard (dir.), *Actes du Quatrième Colloque Méga-Tchad : 2. Les relations Hommes-Femmes dans le Bassin du lac Tchad*, Paris, ORSTOM, 1991, p. 235.
3. Louis Perrois, « La circoncision Bakota Gabon », *Cahiers ORSTOM. Série Sciences Humaines*, 1968, 5 (1), p. 31.
4. Séverin-Cécile Abéga, « La femme Mafa et l'arbre », in Daniel Barreteau (Sous la direction de), *L'homme et le milieu végétal dans le bassin du lac Tchad*, Paris, ORSTOM, 1997, p. 179.
5. Gérard Heuzé, « L'évolution des familles de milieux populaires à Mumbai, Inde », *Autrepart* (2), 1997, p. 22.
6. Valérie Delaunay, *L'entrée en vie féconde : expression démographique des mutations socio-économiques d'un milieu rural sénégalais*, Paris, CEPED, 1994, p. 52.
7. Malek Chebal, *L'imaginaire arabo-musulman*, Paris, Presses Universitaires de France, 1993.
8. Malek Chebal, *L'esprit de sérail. Perversions et marginalités au Maghreb*, Paris, Lieu Commun, 1988, p. 75.
9. Zine-Eddine Zemmour, « Jeune fille, famille et virginité », *Confluences Méditerranée - Algérie*, Alger / Paris, Edition Marsa et L'Harmattan, n° 2, printemps 2002.
10. Radia Toulbi, *Les attitudes et les représentations du mariage chez la jeune fille Algérienne*, Alger, ENAL, 1984, p. 68.
11. Voir un compte-rendu in « Familles du sud », *Autrepart*, 1997 (2), p. 164.
12. "من أهم الأسباب التي ساهمت في ربط العلاقة الجنسية بالإثم والخطيئة هو تلك المحظورات التي يفرضها المجتمع على الحياة الجنسية والأعضاء التناسلية لدى المرأة"، نوال السعداوي، المرأة والجنس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1980، ص 19.
13. نفس المرجع، نفس الصفحة.
14. سميرة نعمان قسوس، *بلاد حضومة الجنسية النسائية في المغرب*، ترجمة عبد الرحيم خزل، المركز الثقافي العربي، الطبعة 11، 2001، ص 175.

الجنسية وإنشغالها بالجنس الاجتماعي النفسية. فهي تعتبر أن السبب يكمن في المحظورات التي يفرضها المجتمع على الحياة الجنسية للمرأة، والنقطة الجوهرية التي تقف عليها الباحثة نوال السعداوي هي جهل جسد المرأة، فتقول في هذا الصدد: "من أهم ما أسهم في الثقافة الجنسية المغلوطة هو جهل جسد المرأة والتركيز إلا على الأعضاء التناسلية والتي يقتصر دورها في الإنجاب (المهبل والرحم)" (13).

تعطي الباحثة سميرة نعمان قسوس تعريفا واقعيا للعنصرية في كتابها *بلاد حضومة، الجنسية النسائية في المغرب*: "إن العنصرية تتمثل في المقام الأول في غشاء المهبل، أكثر مما هي حالة من الطهر الداخلي، وصون العنصرية. وذلك هو واجب كل فتاة تحترم نفسها. يعني صون هذه القطعة الجلدية التي تجري بها تلك اللحظة المشهودة، فمن المؤكد أنها تؤثر على حياة النساء الجنسية برمتها" (14).

فلو أن المجتمع بأسره، رجالا ونساء، يفهم ما يحتويه هذا الجسد الأنثوي، ويدرك أن الأجساد تختلف لفهم أن من النساء من لا يملكن غشاء البكارة، هذا الغشاء الجلدي المرتبط بشرف العائلة وسمعتها، وفيهن من تملكنه بدون احتمال نزول قطرات الدم التي يطالب بها المجتمع العروس ليلية دخلتها. المسألة الجوهرية هي إذن مسألة معرفة جسد المرأة الاجتماعية الثقافية لمواجهة تلك المعتقدات المغلوطة حول هذا الجسد لكي لا تبقى حياتها الجنسية مرتبطة إلى الأبد بكل ما هو محظور وممنوع. ويبدو أن الفتاة لن تكسب استقلالها الذاتي ما لم يزال هذا الإيهام حول جسدها.

هذا عن العنصرية في محيط البحر الأبيض المتوسط على العموم، لكن ماذا عن المجتمعات الصحراوية بالخصوص ؟ خاصة وأنها مجتمعات مغلقة نسبيا، ولها معتقداتها وطقوسها الخاصة، التي تجعلها متميزة بعض الشيء عن غيرها من المجتمعات، لكن لا أظن أنها قد تختلف عنها فيها يخص طابو الجنسية والعنصرية، وبالأخص في إرتباط العنصرية بالمقدس وشرف العائلة.

د. مباركة بلحسن

جامعة وهران